

الفصل الثالث البعث والنشور

المبحث الأول العرف بالبعث والنشور

المراد بالبعث المعاد الجسماني ، وإحياء العباد في يومي المعاد ، والنشور مرادف للبعث في المعنى ، يقال : نشر الميت نشورا إذا عاش بعد الموت ، وأنشره الله أحياء . فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ، ويقوم الناس لرب العالمين ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرٍ ﴾ (١) .

وقد حدثنا الحق - تبارك وتعالى - عن مشهد البعث العجيب الغريب فقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ (١) قَالُوا يَا بُولُوكْنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرِّقَدْنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٦﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٧﴾ (٢) .

وقد جاءت الأحاديث مخبرة بأنه يسبق النفخة الثانية في الصور نزول ماء من

(١) سورة الزمر : ٦٨ .

(٢) سورة يس : ٥١ .

السما ، فتثبت منه أجساد العباد ، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا .

قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ، ويصعق الناس . ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله - مطرا كأنه الطلُّ أو الظلُّ ، (نعمان أحد رواة الحديث هو الشاك) فتثبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، (١) .

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذلك الماء الذي ينبتها بمائل إنبات النبات من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا ، ولذا فإن الله قد أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات غبّ نزول الغيث ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) . وقال في موضع آخر : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ سَحَابًا فُسِقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٣) .

ولاحظ في كلا الموضعين قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ ، ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ﴾ ، فإنهما يدلان على المماثلة والمشابهة بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماء قبيل النفخ في الصور ، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء . ونحن نعلم أن النبات يتكون من بذور صغيرة ، تكون في الأرض ساكنة

(١) صحيح مسلم : (٢٢٥٩/٤) ، ورقمه : ٢٩٤٠ .

(٢) سورة الأعراف : ٥٦ .

(٣) سورة فاطر : ٩ .

هامدة ، فإذا نزل عليها الماء تحركت الحياة فيها ، وضربت بجذورها في الأرض ،
وبسقت بسوقها إلى السماء ، فإذا هي نبتة مكتملة خضراء .

والإنسان يتكون في اليوم الآخر من عظم صغير ، عندما يصيبه الماء ينمو نمو
البقل ، هذا العظم هو عجب الذنب ، وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل
العجز ، وأصل الذنب . ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي
الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون ، ثم ينزل من
السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، وليس في الإنسان شيء إلا بلي ، إلا عظم
واحد ، وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة » .

ولمسلم طرف في عجب الذنب ، قال : « إن في الإنسان عظماً لا تأكله
الأرض أبداً ، فيه يركب يوم القيامة ، قالوا : أي عظم هو يا رسول الله ؟ قال :
عجب الذنب » .

وفي رواية له وللموطأ وأبي داود والنسائي قال : قال رسول الله ﷺ : « كل
ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، وفيه يركب »^(١) .

وقد دلت النصوص الصحيحة أن أجساد الأنبياء لا يصيبها البلى والفناء
الذي يصيب أجساد العباد ، ففي الحديث الذي يرويه أبو داود ، وصححه ابن
خزيمة وغيره : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »^(٢) .

(١) جامع الأصول : (١٠/٤٢١) ، ورقمه : ٧٩٤١ .

(٢) انظر فتح الباري : (٦/٤٨٨) .

المبحث الثاني البعث خلق جديد

يعيد الله العباد أنفسهم ، ولكنهم يخلقون خلقا مختلفا شيئا ما عما كانوا عليه في الحياة الدنيا ، فمن ذلك أنهم لا يموتون مهما أصابهم البلاء ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ (١) ، وفي الحديث الذي يرويه الحاكم بإسناد صحيح عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : « يا بني أود ، إني رسول رسول الله ﷺ تعلمون المعاد إلى الله ، ثم إلى الجنة أو النار ، وإقامة لا ظعن فيه ، وخلود لا موت ، في أجساد لا تموت » ورواه الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » بنحوه (٢) .

ومن ذلك إحصار العباد ما لم يكونوا يبصرون ، فإنهم يبصرون في ذلك اليوم الملائكة والجن ، وما الله به عليم ، ومن ذلك أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتغوطون ولا يتبولون .

وهذا لا يعني أن الذين يبعثون في يوم الدين خلق آخر غير الخلق الذي كانوا في الدنيا ، يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى : « النشأتان نوعان تحت جنس : يتفقان ويتماثلان ويتشابهان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر ، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ ، وجعله مثله أيضا .

فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد فهو هو ، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله ، وهكذا كل ما أعيد ، فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد . . . » (٣) .

(١) سورة إبراهيم : ١٧ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٣١/٤) ورقم الحديث : ١٦٦٨ .

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٥٣/١٧) وقد أطال الشيخ رحمه الله تعالى في بيان المعنى الذي نقلناه عنه . فارجع إليه إن شئت المزيد من الإيضاح والبيان .

المبحث الثالث أول من تنشق عنه الأرض

أول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا محمد ﷺ ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع . . وأول مشفع » (١) .

وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « استب رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمد على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده ، فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم ، فقال : لا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق ، أو كان ممن استثنى الله عز وجل » .

وفي رواية لها « . . . فإنه ينفخ في الصور ، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من يبعث ، فإذا موسى أخذ بالعرش ، فلا أدري : أحوسب بصعقة الطور ، أم بعث قبلي ؟ » (٢) .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/١٧٨٢) ورقمه : ٢٢٧٨ .

(٢) جامع الأصول : (٨/٥١٣) ، ورقمه (٦٣٠٨) .

المبحث الرابع حشر الخلائق جميعاً إلى الموقف العظيم

سمى الله يوم الدين بيوم الجمع ، لأن الله يجمع العباد فيه جميعاً ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ
مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ (١) ، ويستوي في هذا الجمع الأولون
والآخرون، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٩١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ (٢).

وقدرة الله تحيط بالعباد ، فالله لا يعجزه شيء ، وحيثما هلك العباد فإن الله
قادر على الإتيان بهم ، إن هلكوا في أجواز الفضاء ، أو غاروا في أعماق الأرض ،
وإن أكلتهم الطيور الجارحة أو الحيوانات المفترسة ، أو أسماك البحار ، أو غيبوا في
قبورهم في الأرض ، كل ذلك عند الله سواء ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُرِّ اللَّهِ
جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

وكما أن قدرة الله محيطه بعباده تأتي بهم حيثما كانوا ، فكذلك علمه محيط
بهم ، فلا ينسى منهم أحد ، ولا يضلُّ منهم أحد ، ولا يشدُّ منهم أحد ، لقد
أحصاهم خالقهم تبارك وتعالى ، وعدهم عدداً ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا ﴿٩٢﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فَرْدًا ﴿٩٤﴾ ، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٥) .

(١) سورة هود : ١٠٣ .

(٢) سورة الواقعة : ٥٠ .

(٣) سورة البقرة : ١٤٨ .

(٤) سورة مريم : ٩٣ - ٩٥ .

(٥) سورة الكهف : ٤٨ .

وهذه النصوص بعمومها تدل على حشر الخلق جميعا الإنس والجن
والملائكة ، ولا حرج على من فقه منها أن الحشر يتناول البهائم أيضا .

وقد اختلف أهل العلم في حشر البهائم ، فذهب ابن تيمية رحمه الله - إلى أن
ذلك كائن .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « وأما البهائم فجميعها
يحشرها الله سبحانه ، كما دل عليه الكتاب والسنة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ
أَمْثَالِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى :
﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ (٣) ، وحرف
« إذا » إنما يكون لما يأتي لا محالة (٤) .

وحكى القرطبي خلاف أهل العلم في حشر البهائم ورجح أن ذلك كائن
للأخبار الصحيحة في ذلك ، قال القرطبي : « واختلف الناس في حشر البهائم ،
وفي قصاص بعضها من بعض ، فروي عن ابن عباس أن حشر البهائم موتها ،
وقاله الضحاك . وروي عن ابن عباس في رواية أخرى أن البهائم تحشر وتبعث ،
وقاله أبوذر وأبو هريرة وعمرو بن العاص ، والحسن البصري وغيرهم ، وهو

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٢) سورة التكوير : ٥ .

(٣) سورة الشورى : ٢٩ .

(٤) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : (٢٤٨/٤) .

الصحيح ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ، وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
يَحْشُرُونَ ﴾ (١) .

قال أبو هريرة : يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة : البهائم ، والطيور ،
والدواب ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم
يقول : كوني ترابا ، فذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ لَئِنِّي
كُنْتُ تُرَابًا ﴾ (٢) ونحوه ، (٣) .

(١) سورة الأنعام : ٣٨ .

(٢) سورة النبا : ٤٠ .

(٣) تذكرة القرطبي : ٢٧٣ .

المبحث الخامس

صفة حشر العباد

يحشر العباد حفاة عراة غرلا أي غير مختونين ، ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس أن النبي ﷺ : قال : « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا » ثم قرأ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعْبُدُهُمْ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١) (٢) .

وعندما سمعت عائشة الرسول ﷺ يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا » قالت : يا رسول الله ، الرجال والنساء جميعا ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » متفق عليه (٣) .

وقد جاء في بعض النصوص أن كل إنسان يبعث في ثيابه التي مات فيها ، فقد روى أبو داود وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري أنه لما حضره الموت دعا بثياب جدد ، فلبسها ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الميت يبعث في ثيابه التي يموت فيها » وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وقال الشيخ ناصر الدين فيه : وهو كما قال (٤) .

وقد وفق البيهقي بين هذا الحديث وسابقه بثلاثة أوجه :

(١) سورة الأنبياء : ١٠٤ .

(٢) مشكاة المصابيح : (٧٥/٣) ، ورقم الحديث : ٥٥٣٥ .

(٣) مشكاة المصابيح : (٥٧/٣) ، ورقم الحديث : ٥٥٣٦ .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة : (٢٣٤/٤) ، ورقم الحديث : ١٦٧١ .

الأول : أنها تبلى بعد قيامهم من قبورهم ، فإذا وافوا الموقف يكونون عراة ، ثم يلبسون من ثياب الجنة .

الثاني : أنه إذا كسي الأنبياء ثم الصديقون ، ثم من بعدهم على مراتبهم فتكون كسوة كل إنسان من جنس ما يموت فيه ، ثم إذا دخلوا الجنة لبسوا من ثياب الجنة .

الثالث : أن المراد بالثياب هاهنا الأعمال ، أي يبعث في أعماله التي مات فيها من خير أو شر ، قال الله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ (٢) .

واستشهد البيهقي على هذا الجواب الأخير بحديث الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » (٣) .

وحديث جابر هذا رواه مسلم في صحيحه (٤) ، ولا يفقه منه أن العبد يبعث في ثيابه التي كُفِنَ فيها أو مات فيها ، وإنما يبعث على الحال التي مات عليها من الإيمان والكفر ، واليقين والشك ، كما يبعث على العمل الذي كان يعمل عند موته يدلُّ على هذا ما رواه مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله بقوم عذابا ، أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم » (٥) .

(١) سورة الأعراف : ٢٦ .

(٢) سورة المدثر : ٤ .

(٣) النهاية لابن كثير : (٢٨٨/١) .

(٤) رواه مسلم : (٢٢٠٦/٤) . ورم الحديث : ٢٨٧٨ .

(٥) صحيح مسلم (٢٢٠٦/٢) ورم الحديث : ٢٨٧٩ .

فالذي يموت وهو محرم يبعث يوم القيامة ملبياً ، ففي صحيح البخاري
ومسلم ومسنده أحمد عن عبدالله بن عباس قال : إن رجلاً كان مع النبي ﷺ
فوقصته^(١) ناقتة وهو محرم فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « اغسلوه بماء وسدر ،
وكفنوه في ثوبيه ، ولا تُمسّوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه^(٢) ، فإنه يبعث يوم القيامة
ملبياً^(٣) .

والشهيد يبعث يوم القيامة وجرحه يشعب اللون لون الدم والريح ريح
المسك .

ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله ، لعله يموت على التوحيد ، ثم
يبعث يوم القيامة ناطقاً بهذه الكلمة الطيبة .

(١) أي أسقطته فكسرت عنقه .

(٢) أي لا تقطروا رأسه .

(٣) مشكاة المصابيح : (١/٥٢٠) ، ورقم الحديث : ١٦٣٧ .

المبحث السادس كسوة العباد في يوم المعاد

ذكرنا فيما سبق أن الله يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، كما صحت بذلك الأحاديث ، ثم يكسى العباد ، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة ، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران ، ودروع الجرب ، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة .

وأول من يكسى من عباد الله نبيّ الله إبراهيم خليل الرحمن ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « إن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم الخليل »^(١) .

قال ابن حجر : « وأخرج البيهقي من طريق ابن عباس نحو حديث الباب وزاد : « وأول من يكسى من الجنة إبراهيم ، يكسى حلة من الجنة ، ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش ، ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر »^(٢) .

وذكر العلماء أن تقديم إبراهيم على غيره بالكسوة في يوم القيامة ، لأنه لم يكن في الأولين والآخرين أخوف لله منه ، فتعجل له الكسوة أمانا له ليطمئن قلبه ،

(١) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الحشر ، فتح الباري : (٣٧٧/١١) ، ورواه أيضا في كتاب الأنبياء ، انظر فتح الباري : (٣٨٧/٦) .

(٢) فتح الباري : (٣٨٤/١١) .

ويحتمل لأنه - كما جاء في الحديث - أول من لبس السراويل إذا صلى مبالغاً في التستر وحفظاً لفرجه من أن يماسّ مصلاه ، ففعل ما أمر به ، فجزي بذلك أن يكون أول من يستر يوم القيامة ، ويحتمل أن يكون الذين ألقوه في النار جردوه ونزعوا ثيابه على أعين الناس ، كمن يفعل بمن يراد قتله ، فجزي بكسوته في يوم القيامة أول الناس على رؤوس الأشهاد ، وهذا أحسنها» (١) .

(١) تذكرة القرطبي : ٢٠٩ .